العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
٧٩

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

وحدة الهدف وتعدد الأساليب

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتفرغ في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ

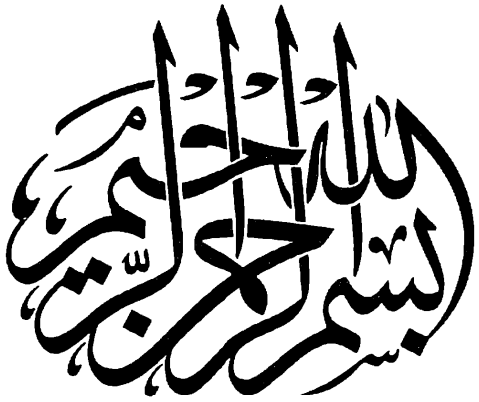
بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
٧٩

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

وحدة الهدف وتعدد الأساليب

الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ

www.imamali-a.net
info@imamali-a.net

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

وحدة الهدف وتعدد الأساليب

المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٣/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، واشهد إن لا اله إلا الله شهادة يوافق فيها السر الإعلان، والقلب اللسان، وصلى الله على رسوله محمد الذي بعثه رحمة للعالمين وعلى آله الغر الميامين الذين من سبقهم ضلّ ومن تأخر عنهم هلك، لاسيما وصيه ووزيره أمير المؤمنين عليه السلام.

ما اعتادت الدنيا ان ترى الأفذاذ في كل أدوارها.. لذا كان ظهورهم فيها حدثا خطيرا وامرا جسيما، ومن أولئك الأفذاذ المصلحين: خاتم الانبياء محمد وعترته الطيبين الطاهرين.

وقد يصعب على الإنسان الخوض في هذه الشخصيات الإسلامية الفذة والفريدة التي تمثلت فيها جميع المثل الإنسانية العليا، لما لها من منزلة سامية ومكانة محفوفة برضوان خالقها وموجدها، فهم اختصوا بمعرفة الله تعالى التامة دون سواهم، ونالوا رتبا عالية رفعتهم عن سائر المخلوقين، حتى روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه واله انه قال: (يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وأنت ولا يعرفك إلا الله وانا) فكيف ترتقي لوصفهم الأقلام، وتصف أسرار تلك النفوس الزكية.

لقد كان في كل صفة من صفاتهم معجزة.. فأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين آية من آيات الله العظمى، فهم اصل الدين وفرعه

ومعدنه ومنتهاه، بهم بدأ الله وبهم يختم.

وهذه الموسوعة الإسلامية الخاصة بآل البيت عليهم السلام لمؤلفها الاستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين بن الشيخ علي الصغير ما هي الا نفحة من النفحات العطرة عن هذا البيت النبوي الطاهر، وعرفانا من العتبة العلوية المقدسة لهذه الجهود الكبيرة في تأليف هذه الموسوعة، قامت الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة باعادة طباعة هذه الموسوعة ونشرها للقراء الكرام اثراء للمكتبة الإسلامية في نشر فكر وتراث اهل البيت صلوات الله عليهم اجمعين.. والله من وراء القصد.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

النجف الأشرف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقلّد الإمـــام أبـو محمد الحسن بـن علي العسكري عليه السلام منصب الولاية الإلهية، وتسنّم سدّة الإمامة الكبرى في فترة عصيبة من تأريخ أئمة أهل البيت عليهم السلام، فهو الإمام الحادي عشر الذي يطلّ على تباشير ميلاد الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

وكان هذا الإرهاص إيذاناً بإثارة هواجس البلاط العباسي والظالمين، فولده هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، والعباسيون يعرفون ذلك جيداً بما صحّ لديهم من روايات!! وهو ما يقضّ مضاجعهم ويطوح بأحلامهم، فهم الظَلَمَة وهم الجائرون؛ وهذا ما يجعلهم يعيشون حياة الرعب والقلق والاضطراب.

وكان لابد في لغة السياسة الغاشمة ـ والحالة هذه ـ من ضرب الحصار الأمني على الإمام ومتابعة تحركاته، وتطويقه برقابة صارمة، وعرضه على السجون والمعتقلات الرهيبة، وفرض تواجده في دار العامة وهي البلاط العباسي، وذلك لرصده ذاتياً من قريب، وإحصاء أنفاسه عليه، وقد تمّ ذلك، فحرم أولياؤه من الالتقاء به إلا قليلاً، فأوحى بنيابة الوكلاء، وأصَّل لمرجعية الفقهاء، وأوصى بانتظار الفرج، وسلك

منهجاً جديداً في التمهيد التدريجي لولده الإمام المنتظر بفكر جديد، واستراتيجية منظمة، والتمس خطاً متوازناً في الأداء فجلب الأعداء إلى حضيرة الأولياء، ونصب نفسه علماً للشريعة الغراء، وقيّماً أميناً على شؤون الإسلام، ومناراً شاخصاً للفقاهة والمعارف والإفتاء، وصكّ الحكم بعنصر اللمح الغيبي تارة، والتخطيط السري تارةً أخرى، فتكامل له فرض مشروعة الإلهي بما ظهر من علمه، وما برز من ورعه وفضله، وما انتشر من برّه ونبله، مما سارت به الركبان رغم قصر حقبة إمامته، واستشهاده في ريعان الشباب.

وكان استنفار القوى الأمنية في مواجهة الإمام، قد حدّد نشاطه الإنساني في شتى المجالات، فاضطر الإمام في قيادته إلى ابتكار أساليب متطوّرة زمنياً بالنسبة لعصره، تعددت مستوياتها، وتنوعت وجهاتها، مع الاحتفاظ بأصل وحدة الهدف الرسالي تبعاً لآبائه وأجداده من الأئمة المعصومين.

وقد أحرز الإمام الحسن العسكري عليه السلام قصب السبق في هذه الغاية، وحقق النصر المستقبلي الكبير في هذا التخطيط، بما أوحى أن يكون عنوان هذا الكتاب:

«الإمام الحسن العسكري / وحدة الهدف.. وتعدد الأساليب».

وقد حدب البحث على دراسة هذه الأطروحة الفريدة للإمام، واستطاع ـ بكل تواضع ـ أن يبرهن على صدقها في نماذج حيّة من خطوات الإمام، وأن يبرزها في مشاهد من تطلعاته النافذة، وأن يثبتها في ظواهر آرائه النيّرة.

وكان لابد من عرض موجز لسيرته العطرة، وخلاصة عن حياته مع سلاطين عصره، وإلقاء الضوء على مشكلات زمانه، واقتطاف بعض

الثمرات من روافد معارفه، وهذا ما اقتضى أن ينتظم البحث في ستة فصول منهجية العرض، موضوعية الأداء، كالآتي:

الفصل الأول، وهو بعنوان: (شذرات ثمينة من السيرة العطرة)

اشتملت على سبعة مباحث وبضمنها تفريعاتها، وهي:

- النسب الشريف والولادة والكنى.
- النشأة الرائدة.
- النصّ على إمامته.
- الإمام الحسن العسكري في ظواهر ذاتية.
- الإمام في الرأي الآخر.
- الإمام في لغة التأريخ وألسنة الرواة.
- وللمعاصرين آراؤهم في الإمام.

وكان الفصل الثاني بعنوان «عصر الإمام الحسن العسكري» وقد اشتمل على خمسة مباحث وبضمنها تفريعاتها، وهي:

- تداعي هيبة الحكم.
- حياة اللهو والعبث والاستئثار، وإنكار الإمام.
- الاضطهاد السياسي.
- موجات الإنحراف والأفكار الوافدة.
- مجابهة الإمام العسكري للتضليل العقائدي.

وكان الفصل الثالث بعنوان: «الإمام وملوك العصر العباسي»

وقد اشتمل على خمسة مباحث وبضمنها تفريعاتها، وهي:

- الإمام والخط العباسي العام.
- الإمام في ولاية المعتز العباسي.
- الإمام في أيام المهتدي العباسي.
- الإمام في عهد المعتمد العباسي.

وكان الفصل الرابع بعنوان: «الإمام العسكري يمهّد لولده الإمام المنتظر»

وقد اشتمل على خمسة مباحث وبضمنها تفريعاتها، وهي:

- طبيعة التمهيد التدريجي للإمام المنتظر.
- التخطيط الاستراتيجي لإعلان ميلاد الإمام المهدي.
- نيابة الوكلاء عن الإمام.
- تأصيل مرجعية الفقهاء.
- فلسفة انتظار الفرج.

وكان الفصل الخامس بعنوان: «صفحات مشرقة من تراث الإمام»

وقد اشتمل على سبعة مباحث، هي:

- موارد علم الإمام العسكري.
- تلامذة الإمام العسكري ودورهم الإيجابي.
- وصايا الإمام ورسائله الرائدة.
- الإمام يدفع الشبهات بإفاضاته القيّمة.
- في رحاب التفسير.
- في ميادين الفقه.

- الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في تراث الإمام.

وكان الفصل السادس بعنوان: «استشهاد الإمام الحسن العسكري».

وقد اشتمل على أربعة مباحث، وثلاث قصائد للمؤلف في الإمام، وهي:

- اغتيال الإمام مسموماً.
- إجراءات النظام العباسي.
- الحقيقة التأريخية في تجهيز الإمام.
- ما بعد وفاة الإمام العسكري.
- قصائد المؤلف في الإمام.

وكانت مصادر هذا الكتاب ومراجعه تشمل كتب الحديث والرواية، وتنتظم موارد التأريخ والسيرة، وتفيد من صفحات الأدب وعلم الكلام.

وكان البعد العلمي في رصد الأحداث ومؤثرات التأريخ وإشكالية الظروف رائد هذه الدراسة بدقة وموضوعية، بعيداً عن الأحكام المرتجلة، قريباً من الواقعية، وفي منأى عن الجدل العقيم والانفعال الذاتي.

وكان المنهج التحليلي لمظاهر السياسة والتأريخ والاجتماع سبيل هذا البحث في استقراء حقائق الأحداث خاضعة للنقد والمقارنة والاستنباط، مما جعل المهمة صعبة المراس في مواجهة البعد الرسمي لتدوين التأريخ المناهض لمشروع أهل البيت جملة وتفصيلاً.

أرجو أن أكون موفقاً في الاختبار، ودقيقاً في الحكم، محايداً في الاستنتاج، عسى أن أفي حقّ هذا الإمام العظيم في جزء من معالمه الكبرى، وما لا يدرك كلّه، لا يترك كلّه.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير

الفصل الرابع

الإمام العسكري يمهد لولده الإمام المنتظر

١. طبيعة التمهيد التدريجي للإمام المنتظر.

٢. التخطيط الاستراتيجي لإعلان ميلاد الإمام المهدي.

٣. نيابة الوكلاء عن الإمام.

٤. تأصيل مرجعية الفقهاء.

٥. فلسفة انتظار الفرج.

طبيعة التمهيد التدريجي للإمام المنتظر

كان العمل السرّي المنظم الأداة الوحيدة الأكثر نجاحاً في عصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام للتمهيد لولده المهدي المنتظر أرواحنا فداه، وكان الإمام العسكري معنياً بهذا الأمر عناية معمّقة تتلاءم مع طبيعة الظرف السياسي الطارئ الذي اكتنف كيان الدولة العباسية وهي تتلقى أنباء قرب ولادة الإمام المهدي، وأنه الإمام الثاني عشر الذي سيطوح بالكيانات الطاغوتية في العالم، والنظام العباسي في طليعتها كما يقدرون، وكان هذا الإرهاص حرياً بإثارة قلق السلطة واستبداد المخاوف لدى قادتها، مما جعلها تتأهب تماماً لاستقبال هذا الحدث لوئده في مهده، وتضع قواها الفاعلة في أقصى درجات الاستنفار لمواجهة الخطر القادم.

وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقابل مهمته الرسالية وجهاً لوجه في خضمّ تلاحق الأحداث وتسارعها بإشاعة هذا النبأ، ولقد أبدى الإمام جدارة فائقة بالتمهيد المسؤول عن سلامة ولده، بما يحقق الحفاظ عليه في ظرف عصيب غلبت عليه الفوضى في قرارات السلطة، وفرضت في حالة الطوارئ القصوى وهي تتتبع هذا الحدث الجديد المقدّر له الإجهاز عليها بالكامل، وهي تحاول الانقضاض عليه بسرعة خارقة، وترصد علامات ولادته المتقاربة، وتلحظ ما عليه الإمام العسكري من أحوال

شخصية.

وكان الإمام علي الهادي عليه السلام لم يعلن عن زواج رسمي للإمام العسكري، وإنما تم اقترانه بسريّة تامة من إحدى السراري الروميات، وهي السيدة «نرجس» في أغلب الروايات، وبدراية قِلّةٍ من الثقات، وبعلم عدد محدود من نساء البيت الطاهر، وحملت السيدة «نرجس» بولدها الوحيد الإمام محمد المهدي عليه السلام، ولم يفصح عن هذا الحمل على الإطلاق حتى الولادة، وكانت ولادته في مناخ عائلي غلب عليه عنصر الكتمان، فلم يلفت ذلك أحد المعنيين والحاكمين المتربصين بالوليد الجديد، ومن ثم بدأ الإعلان التدريجي عن مولده الشريف من قبل أبيه بخاصة للثقات والخلّص من الأولياء.

بهذا الشكل الباهر كان ميلاد صاحب الأمر، وجاء تصديقاً لما ورد فيه من أخبار متواترة قبل ولادته بقرنين من الزمان، الأمر الذي اطّلع عليه بنو أمية وبنو العباس عن طرقهم المتواترة وأيقنوا به فعلاً، إذ تناقل المسلمون تلك المرويات طبقة عن طبقة حتى عرف بها الخاص والعام، والنصوص على ذلك كثيرة جداً إذ بلغت آلاف الروايات، كما جاء ذلك أخيراً في: «المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عجل الله فرجه»

من تأليف سماحة الأخ العلامة المحقق الشيخ علي الكوراني العاملي عامله الله بلطفه في أحدث طبعة له جاءت بـ (١١٣٦) صفحة.

وقد اشتهرت أغلب هذه الأحاديث شهرة مستفيضة في عهد الصادقين: الإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق عليهما السلام.

وهنا نجد دورة الإمام الحسن العسكري جديراً بالأهمية في سبيل التمهيد لولده من جهات خطيرة متعددة.

لقد نهد الإمام العسكري عليه السلام بهذا الثقل العظيم، وأدّى ما عليه

تجاهه بصلابة وإعداد، فهو يعلن في الوقت المناسب عن ميلاد الإمام المنتظر، وهو يعمّق مفهوم الغيبة الصغرى والكبرى، وهو يدرّب أولياءه والأمة على أخذ التعليمات عن الإمام بصورة غير مباشرة، وهو يمرّنها على فلسفة انتظار الفرج، وهو يحذّرها من الانخداع بالانتفاضات المرتجلة، وهو يؤهلها لاستقبال الظهور المرتقب، وهو يعدّها إعداداً رسالياً لليوم الموعود.

إنها مفردات ضخمة الأداء، تفرّغ الإمام الحسن العسكري عليه السلام لخوض غمارها بعزم وتضحية، منطلقاً بتخطيط جديد، وأسلوب جديد، وعرض جديد، حيث حقق أهدافاً مستقبلية كبرى رغم قصر مدة إمامته التي لم تتجاوز السنوات الست.

إن مهمة إعداد الأمة لهذه المرحلة يتطلب كثيراً من الجهود الإضافية، فحينما يكون الإمام بين ظهراني شيعته فإنهم يستمعون إليه، ويأخذون منه وجاهياً، ويرتبطون بشخصيته مباشرة دون حجاب، وبهذا يكون الالتقاء الفكري متوافراً في حالة حضور الإمام بتوافر وجوده الشريف، أمّا في حالة غيابه، فتحتاج المسيرة في ضوء آرائه جهداً استثنائياً طارئاً يذلل من وقع غيابه على النفوس، وذلك بممارسة جديدة تستدعي بيان الأسباب والدواعي لفلسفة الغيبة.

هذا الحدث المرتقب يعني التمسك باللمح الغيبي والإيمان بعائديته على أولياء الإمام بتلقي المعلومات الضرورية في شؤون الدنيا والدين بالوساطة بين الإمام وبينهم عن طريق ثقاته ووكلائه، والثبات على المبدأ الأصل في حالة الغيبة كما هو عليه في حالة الحضور، وما يؤسس على هذا المبدأ من الصبر والاندماج في الواقع الجديد، وما يترتب على ذلك من انتظار الفرج من جهة ومن العمل على تهيئة المناخ المناسب مستقبلاً للظهور المرتقب.. وما يصاحب ذلك من هزّات وإفرازات لا يتجاوزها إلاّ

من محض الإيمان وامتحن فيه قلبه.

حدث الحسن بن محمد بن صالح البزاز قائلاً

سمعت الحسن بن علي العسكري عليه السلام يقول:

«إن ابني هو القائم من بعدي، وهو الذي يجري فيه سنن الأنبياء بالتعمير والغيبة حتى تقسو القلوب لطول الأمد، فلا يثبت على القول به إلاّ من كتب الله عزوجل في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه.»[1]

ومؤدّى هذه الرواية مضافاً إلى النص بأن المهدي المنتظر هو القائم: أن هذا القائم تجري به من سنن الأنبياء العمر المديد والغيبة الحتمية، وأن الثابت على القول به من محض الإيمان محضاً.

لهذا وسواه كان توقُّع الاختلاف بعد الإمام العسكري في هذه الظاهرة بجميع عوالمها وأبعادها الآنية والمستقبلية.

وقد نبّه الإمام العسكري عليه السلام إلى هذه الحقيقة مبكراً، فقد حدّث موسى بن جعفر بن وهب البغدادي، قال:

سمعت أبا محمد الحسن عليه السلام يقول:

«كأني بكم وقد اختلفتم بعدي في الخلف مني، أما إن المقرّ بالأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، المنكر لولدي كمن أقرّ بجميع أنبياء رسول الله ورسله، ثم أنكر نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمنكر لرسول الله كمن أنكر جميع الأنبياء، لأن طاعة آخرنا كطاعة أوّلنا، والمنكر لآخرنا كالمنكر لأولنا، أما إن لولدي غيبة يرتاب فيها الناس إلاّ من عصمه الله عزوجل.»[2]

وهذا التشديد في النكير على جحد إمامة صاحب الأمر له دلالته في

(١) الصدوق / كمال الدين ٢/٥٢٤.

(٢) الصدوق / كمال الدين ٢/٤٠٩.

أصل التشريع تكويناً، فالمقرّ بالأئمة والمنكر له، كالمقرّ بنبوة الأنبياء والمنكر لنبوة محمدﷺ.

وبناءً على قاعدة اللطف، وقبح العقاب بلا بيان، فإن من الثابت في دستور أهل البيت، وعليه أغلب المسلمين: أن الأرض لا تخلو من حجة على خلقه، وعلى ذلك الخبر الآتي:

حدّث أبو علي بن همّام قائلاً: سمعت محمد بن عثمان العمري قدس الله روحه [النائب الثاني لصاحب الأمر] يقول: سمعت أبي يقول: سئل أبو محمد بن الحسن بن عليعليه السلام، وأنا عنده: عن الخبر الذي روي عن آبائهعليهم السلام:

«إن الأرض لا تخلو من حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة، وإن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية!!

فقالعليه السلام: «إن هذا حقٌّ كما إن النهار حق.» فقيل له: يا ابن رسول الله فمن الحجة بعدك؟ فقال: «ابني محمد هو الإمام والحجة بعدي، من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية، أما إن له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون، ويكذب فيها الوقّاتون، ثم يخرج، فكأني أنظر إلى الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة.»[1]

إن هذه الإفاضة من الإمام تؤكد على ضرورة الاعتقاد بالغيبة. وتنكر على من أنكر إمامة الحجة المنتظر، وتدعو إلى انتظار الفرج باللازم.

(١) المصدر نفسه ٢/٤٠٩.

التخطيط الاستراتيجي لإعلان ميلاد الإمام المنتظر

أشرنا إلى كيفية التكلم على ولادة الإمام المهدي عجّل الله فرجه، حذر السلطة، وكيف أحيط حتى حمله بالسريّة التامة، ولم تتعرف حتى عمة الإمام على الحمل، وبقي ذلك مصوناً حتى الولادة.

وكان لا بد للإمام أن يعلن نبأ الولادة السعيدة لجملة من أوليائه والثقات من أصحابه، ليحيط هؤلاء خبراً بهذا الحدث العظيم من خلال موقعه في الولاية الإلهية، وكان لا بد من استراتيجية دقيقة في الإعلان عن هذا الأمر الخطير.

ويظهر من الأحاديث الشريفة للإمام العسكري بالذات أنه قد بشر والدته ـ بادئ ذي بدء ـ بحملها هذا.

روى الشيخ الصدوق عن الكليني أن الإمام قال لزوجته: «ستحملين ذكراً، واسمه محمد، وهو القائم من بعدي.»[1]

وما بعد هذا التصريح من تصريح، فقد أنبأ الإمام بالآتي:

أولاً: بأن الحمل سيكون ذكراً.

ثانياً: إن اسم المولود محمد.

---

(١) الصدوق / كمال الدين ٤٠٨/٢.

ثالثاً: إن هذا الوليد سيكون هو القائم بالأمر بعد أبيه العسكري.

وهذه بشارة خاصة على مستوى العائلة.

وبدأ الإمام مبشراً، أولياءه بولده قبل الميلاد، فقد سأله عيسى بن صبيح فيما إذا كان له ولد؟ فأجابه الإمام قائلاً:

«إي والله سيكون لي ولدٌ يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا.»[١]

وهذا إنباء قاطع مقترن بالقسم من قبل الإمام قبل الولادة بميلاد الإمام مستقبلاً. وقد يخبر الإمام بولادته باللازم كما في الرواية: أن جماعة من شيعة الإمام الحسن العسكري عليه السلام وقد فدوا عليه بسامراء، فعرّفهم بوكيله عثمان بن سعيد، وأعلمهم أنه وكيله وأن ابنه محمداً وكيل ابنه المهدي، قائلاً: «اشهدوا عليّ أن عثمان بن سعيد العمري وكيلي وأن ابنه محمداً وكيل ابني مهديكم.»[٢]

وهذا نوع من الإخبار الغيبي الحتمي الواقع.

وقد يفيض الإمام العسكري بالحديث عن ولده بعدة علائم وخصائص ومميزات للدلالة على ميلاده مستقبلاً، مع التأكيد أنه الحجة، وأن اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن كنيته كنية رسول الله، وأنه خاتم الحجج والخلفاء، وأنه من ابنة قيصر، وأنه سيولد، وأنه سيغيث، وهذه تفصيلات دقيقة نابعة من بعد استراتيجي اتخذه الإمام للإعلان الفعلي عن ميلاد ولده الإمام المنتظر.

عن الفضل بن شاذان أن محمد بن عبد الجبار سأل الإمام الحسن العسكري عن الإمام والحجة من بعده، فأجابه بالقول: «إن الإمام وحجة الله من بعدي ابني، سميّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكنيّه، الذي هو خاتم حجج

(١) القطب الراوندي / الخرائج والجرائح ٤٧٨/١.
(٢) الطوسي / الغيبة ٢١٥.

الله وآخر خلفائه.»

فسأله ممن هو؟ فقال الإمام:

«من ابنة قيصر ملك الروم، إلا أنه سيولد ويغيب عن الناس غيبة طويلة ثم يظهر.»[١]

وبعد هذا التمهيد نشاهد إرهاصات الولادة بالإخبار عنها أولاً، وبتحققها ثانياً، وبالإشهاد عليها ثالثاً، وبكتابة الإمام العسكري لثقافته في الموضوع، ومعرفتهم بذلك.

فالسيدة «حكيمة» بنت الإمام الجواد عليه السلام، وأخت الإمام علي الهادي عليه السلام، وعمه الإمام الحسن العسكري كان لها أن تبركت بتولي أمر «نرجس» أم الإمام المهدي عجل الله فرجه بولادته وساعة الولادة.[٢]

وأعلنت نفسها: مشاهدة الإمام المنتظر بعد ميلاده المبارك.[٣]

وأشار أبوه الإمام العسكري بأن السيد حكيمة نفسها قد غسلته[٤]

وقد ساعدها على ذلك بعض النسوة المقربات من بيت الإمام عليه السلام، مثل جارية أبي علي الخيزراني التي أهداها إلى الإمام الحسن العسكري، كذلك مارية ونسيم من خدم الإمام[٥] وكان الإمام يخبر بهذا النبأ بتحفظ بحسب ما تقتضيه المناسبة وطبيعة الكتمان. فتارةً يصرح وأخرى يلمح.

وقد أمر الإمام العسكري بعض وكلائه الأثبات بأن يعقّوا عن المولود المبارك، وإطعام أخوانه من لحم العقائق تلك، بل وكتب بالتشخيص

(١) الحر العاملي / إثبات الهداة ٣/٥٦٩.
(٢) ظ: الصدوق / كمال الدين ٢/٤٢٤.
(٣) ظ: الكليني / الكافي ١/٣٣٠.
(٤) ظ: الصدوق / كمال الدين ٢/٤٣٤.
(٥) ظ: المصدر نفسه ٢/٤٣٠ ـ ٤٣١.

إلى بعضهم.

«عقّ هذين الكبشين عن مولاك، وكلْ هنّأك الله، وأطعم إخوانك.»[١]

وخرج من الإمام العسكري توقيع رفيع جاء فيه: «زعموا أنهم يريدون قتلي ليقطعوا هذا النسل، وقد كذّب الله عَزَّوَجَلَّ قولهم، والحمد لله.»[٢]

وحينما قتل المعتز العباسي، قال الإمام في توقيع له:

«هذا جزاء من اجترأ على الله في أوليائه، يزعم أنه يقتلني وليس لي عقب!! فكيف رأى قدرة الله فيه.»[٣]

وورد منه عليه السلام كتاب بالتصريح إلى أحمد بن إسحاق.

«ولد لنا مولود، فليكن عندك مستوراً، وعن جميع الناس مكتوماً، فإنّا لم نظهر عليه إلاّ الأقرب لقرابته، والولي لولايته.»[٤]

وعن احمد بن إسحاق نفسه قال: سمعت أبا محمد الحسن بن علي العسكري يقول: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى أراني الخلف من بعدي، أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلقاً وخُلُقاً، يحفظه الله تبارك وتعالى في غيبته، ثم يظهره الله فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً.»[٥]

وفي سنة ٢٥٧ هـ خرج عيسى بن مهدي الجوهري مع جماعة إلى سامراء بعد زيارتهم للحسين والشهداء في كربلاء، والكاظم والجواد في بغداد، وقد بشروا بميلاد الإمام المنتظر عجل الله فرجه، فدخلوا على

(١) المسعودي / إثبات الوصية / ٢٢١.
(٢) ظ: الصدوق / كمال الدين ٢/٤٠٧.
(٣) الكليني / الكافي ١/٣٢٩.
(٤) الصدوق / كمال الدين ٢/٤٣٣.
(٥) المصدر نفسه ٢/٤١٨.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام للتهنئة، وأجهروا بالبكاء بين يديه قبل التهنئة، وهم نيف وسبعون رجلاً من أهل السواد. وكان بكاؤهم من شدة الفرح بميلاد الخلف الصالح، فقال الإمام:

«إن البكاء من السرور من نعم الله مثل الشكر لها...»

وأراد عيسى بن مهدي الجوهري أن يتكلم فبدره الإمام قائلاً:

«فيكم من أضمر مسألتي عن ولدي المهدي (ع) وأين هو؟

وقد استودعته الله كما استودعت أم موسى، موسى عليه السلام...

فقالت طائفة: أي والله يا سيدنا لقد كانت هذه المسألة في أنفسنا.[١]

وحينما بدأ الحديث هامساً حول ولادة الإمام المهدي في أفق المجتمع المحدود لأولياء الإمام، قام الإمام بعرضه أحياناً على ثقات أصحابه، والإشهاد عليه، والنصّ على إمامته من بعده، والتأكيد على انتظار فرجه، والبشارة فيه أنه الذي يملأ الدنيا عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وبدأ هذا المنهج يغمر ساحة الأولياء والخلص من أتباعه، فعن عمرو الأهوازي أن الإمام العسكري قد أراه ابنه، وقال «هذا صاحبكم من بعدي.»[٢]

وهذا الإطلاع على الإمام المهدي بدأ بواحد هنا، ولكنه تدرّج وتطوّر إلى وصوله لمجاميع من أصحابه شيئاً فشيئاً، حتى اطمأنت العصابة إلى رؤية الإمام ووجوده دون ريب.

فعن أبي غانم الخادم أنه؛ ولد لأبي محمد عليه السلام ولدٌ فسماه محمداً،

(١) الحر العاملي / إثبات الهداة ٥٧٢/٣.
(٢) الكليني / الكافي ٣٢٨/١.

فعرضه على أصحابه يوم الثالث، وقال: «هذا صاحبكم من بعدي، وخليفتي عليكم، وهو القائم الذي تمتد إليه الأعناق بالانتظار، فإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً، ملأها قسطاً وعدلاً.»[1]

ويتوالى هذا الإخبار، وتتكرر رؤية الحجة المنتظر، حتى يبلغ عدداً جديراً بالشياع بين عمدة القوم فعن معاوية بن حكيم، ومحمد بن أيوب بن نوح، ومحمد بن عثمان العمري، قالوا: عرض علينا أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام ونحن في منزله، وكنا أربعين رجلاً، فسئل عن الحجة من بعده! فخرج علينا غلامٌ أشبه الناس، به، فقال: «هذا إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم، ولا تتفرقوا من بعدي في أديانكم فتهلكوا، أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا.»

قالوا: فخرجنا من عنده، فما مضت إلاّ أيام قلائل حتى مضى أبو محمد عليه السلام[2]

وقد عمد الإمام الحسن العسكري تثبيتاً منه لمبدأ الإمامة إلى خطوة إيجابية هادفة، وذلك أنه سمح لولده بالإجابة عن أسئلة مواليه بحضور أبيه، وكان ذلك في عدة حوادث، وفي مرّات متفاوتة زمنياً.فقد حدّث أحمد بن إسحق حين سأل عن علامة يطمئن إليها قلبه حول إمامة المهدي عليه السلام، وذلك حين أراه الإمام إياه، وقد كان غلاماً كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين... وأن الغلام نطق بلسان عربي فصيح، فقال:

«أنا بقيّة الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه، فلا تطلب أثراً بعد عين

(١) الصدوق / كمال الدين ٤٣١/٢.

(٢) الصدوق / إكمال الدين ٤٣٥/٢.

يا أحمد بن إسحاق.»[١]

وهذه المجابهة من الحجة المنتظر وعمره ثلاث سنين، كان لها الوقع المؤثر في الاطمئنان النفسي، فلا يطلب أثراً بعد عين، وهكذا كان.

وحصل هذا الملحظ بصورة أشمل مع سعد بن عبد الله الأشعري القمي حينما ألقيت إليه مسائل صعبة، فالتحق بأحمد بن إسحاق لعرضها على الإمام العسكري، ودخلا عليه وولده المهدي بين يديه، فأمره أبوه بإخبار أحمد عن هدايا شيعته التي جاء بها، ثم أخبر سعد بن عبد الله بما جاء به من المسائل التي أشكلت عليه، فأجابه عنها.[٢]

(١) المصدر نفسه ٢/٣٨٤.

(٢) المصدر نفسه ٢/٤٥٤.

نيابة الوكلاء عن الإمام

كان الإمام علي الهادي عليه السلام قد طوّر نظام الوكلاء في عصره تطويراً مبرمجاً اعتاد معه أولياء أهل البيت عليهم السلام التعامل مع وكلاء الإمام نيابةً عنه كما أوضحنا هذا في عمل مستقل.[1]

وفي ضوء هذا النظام المتطور كان الوكلاء رضوان الله عليهم يلبّون احتياجات أتباع الإمام، ويحملون إليهم رسائلهم، ويسألون الإمام بدلهم، وبذلك أخذت التجربة الغيبية بالتفاعل مع أولياء أهل البيت تعويضاً عن التجربة الحضورية.

وكان الأداء غير المباشر ينوب عن الأداء المباشر في شتى شؤون الإمامية، وكان الالتقاء الفعلي بالإمام، والارتباط الحاضر به يضفي هيبة وقدسية بين صفوف أتباعه، ويزيد في التفاعل في عملية الأخذ والتلقي عندهم دون حواجز ووسائط، ولكن الدربة على عوالم الغيبة تحتاج إلى عمل مكثّف وشعور معمّق عند الاستجابة لها، كما تتطلب الصبر على المتابعة الواعية التي قد تشق على جملة من الأولياء لأنهم ليسوا سواسية في التفكير والقابلية، ولا بد للإيمان أن يكون متفاوتاً فيما بينهم شدة وضعفاً.

إلاّ أن الجهود الجبّارة التي قام بها الإمام علي الهادي عليه السلام، قد

(١) ظ: المؤلف / الإمام علي الهادي / النموذج الأرقى للتخطيط المستقبلي.

أثمرت تذليل الصعاب في عهد ولده الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقد استقبل أتباع مدرسة أهل البيت نظام الوكلاء متناوباً منذ عهد الصادقين حتى عهد العسكريين، حتى بدا مقبولاً مع شدة الأمر وصعوبة المبدأ، إلا أن الطبقة المختارة قد تلقته بالتسليم والمباركة والامتثال؛ فهم الصفوة، وكان على هذه الصفوة استقبال تعليمات الإمام ونشرها بين صفوف الأمة على الوجه الأكمل، وكان عدد وكلاء الإمامين العسكريين في تصاعد مستمر بحيث شمل المساحة الإسلامية التي تدين بالولاء لأهل البيت عليهم السلام في شرق الدولة وغربها، وكانت الأوامر من قِبل الإمام الحسن العسكري صريحة بضرورة الارتباط المبدئي بهؤلاء الوكلاء.

وكانت طبيعة الاندماج بهذا التنظيم الجديد تقتضي وجود طبقتين من الوكلاء وهما:

الطبقة العلنية المعروفة لدى عموم الشيعة مع التكتم عليهم، والطبقة السريّة المجهولة لدى الكثيرين، باستثناء أماثل الشيعة، ومع هذا قام كل بتأدية واجباته متكاملة، وشكّلوا بذلك بؤرة الإشعاع الفكري والروحي لتوجيهات الإمام سواء أكان طليقاً أم سجيناً أم محتجباً.

وعلى الرغم من التشديد في اختيار الوكلاء، فقد خان الأمانة جملة من الوكلاء يعدّون بأصابع اليد، وذلك لأسباب ماديّة أو اجتماعية أو انحراف عقائدي عن خط أهل البيت، وقد تبرأ منهم الإمامان العسكريان على حدّ سواء، وآذنوا أولياءهم بتلك البراءة تصريحاً بأسمائهم، وتجريحاً بهم، وإنذاراً بالابتعاد عنهم، مما يعني أن هذا الجهاز الضخم يخضع في تشكيلاته إلى رقابة الإمام مباشرة، وكانت تلك البراءة من هذا الصنف تتبعها اللعنة من الإمام، ويتلوها الإعلان عن إلغاء وكالة كل منهم، والتحذير من نزغاتهم.

أما حديث الإمام العسكري عليه السلام عن أساطين هؤلاء الوكلاء، فكان مطمئناً لقلوب أوليائه، ومعبراً عن ثقته بوكلائه، ومعززاً لمواقفهم عملياً، فقد حدّث محمد بن إسماعيل وعلي بن عبد الله الحسنيان، أنهما دخلا على الإمام العسكري في سامراء وبين يديه جملة من أوليائه وشيعته، إذ دخل بدر الخادم، وقال للإمام: يا مولاي بالباب قومٌ شعثٌ، فقال الإمام: هؤلاء نفر من شيعتنا باليمن.. ثم قال لبدر: فامضِ فأتنا بعثمان بن سعيد العمري، فما لبثنا إلاّ يسيراً حتى دخل عثمان، فقال له سيدنا أبو محمد عليه السلام:

«اِمضِ يا عثمان، فإنك الوكيل والثقة والمأمون على مال الله، واقبض من هؤلاء اليمنيين ما حملوه من المال... حتى قالا: ثم قلنا بأجمعنا: يا سيدنا والله إن عثمان لمن خيار شيعتك، ولقد زدتنا علماً بموضعه من خدمتك، وأنه وكيلك وثقتك على مال الله تعالى.»

قال: «نعم واشهدوا عليّ أن عثمان بن سعيد العمري وكيلي، وأن ابنه محمداً وكيل ابني مهديكم.»[1]

ويلحظ أن الإمام عليه السلام ما اكتفى بالإنباء عن وكالة عثمان بن سعيد له، وأنه الثقة المأمون، حتى مهّد لولده الإمام المهدي بالإخبار أن عثمان هذا وكيل له وأن ولده محمداً وكيل المهدي، وهكذا كان عثمان بن سعيد الوكيل الأول للإمام المهدي عجّل الله فرجه، ثم كان ولده محمد بن سعيد وكيله الثاني.

وبدأ نظام الوكلاء في عصر الإمام العسكري عليه السلام يشق طريقه بمباركة الإمام وبتخطيطه لعوالمه المترامية في الإفتاء وإدارة الأموال، وتنفيذ المشاريع، ورعاية القاصرين، وإغاثة الملهوفين، وما يترتب على

(١) الطوسي / الغيبة / ٢١٥.

حمل ذلك من خطوات إجرائية تهيئ أسبابه، وتبعث فيه روح النشاط والحيوية.

وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يثرى هذا النظام ويدعم تلك النيابة بثلاثة مؤشرات:

الأول: تأكيد الثقة الغالية المطلقة من قبله بصفوة هؤلاء الوكلاء الأمناء والإعلاء من شأنهم باعتبارهم البديل المشروع لنيابة الإمام، والإلفات إلى مساس الحاجة إلى علمهم وإفاضاتهم كلّما اشتدت الأزمات السياسية، وكلما اقترب موعد الظهور المبارك، وكلما اقترب أجل الغيبة، لهذا أوحى الإمام لأتباعه أن نيابة هؤلاء عنه ضرورة شرعية تتطلبها المرحلة الانتقالية من الحضور إلى الغيبة، ومن اللقاء المباشر بالإمام إلى اللقاء غير المباشر عن طريق هذه العصبة.

الثاني: التوجيه العام لأولياء الإمام بالأخذ عن هؤلاء الوكلاء معالم دينهم، وشؤون شريعتهم، والاتصال بهم لقبض حقوقهم، والطلب إليهم عند احتياجهم، ، والعمل معهم يداً بيد لإنعاش الطبقات المحرومة، وتهيئة سبل العيش الكريم للفقراء والمضطهدين، لتكون الحالة الجديدة في إطارها هذا تعويضاً نسبياً عن لقاء الإمام في شؤونهم، حتى تمّ لدى عموم الشيعة الاعتياد على هذه الظاهرة، وقبول ما تقرره، وقد أعطت ثمارها الغراء في تجربة دقيقة، فقد خففت عن متابعة الإمام جزئياً، وقد مهّدت لصاحب الأمر كليّاً، وقد صانت الأولياء من الملاحقة المستمرة، وقد أدت الأمانة في مسؤوليتها بيسر وسماح قدر المستطاع.

الثالث: حسن التأني من قبل الإمام مع هؤلاء النوّاب في تطوير شؤونهم الإدارية التي تناسب هذا المنصب المهم، فالإمام لا ينفك من التبليغ الاستمراري لوكلائه كتابةً ومشافهةً، ولا يفتأ من تحصينهم

العلمي أداء ورسالة، وذلك من خلال التوقيعات الشريفة أو المراسلات الأمينة بخطّه مباشرة.

كانت هذه المؤشرات أبرز العوامل في تركيز نظام النيابة عن الإمام.

وكانت وظيفة الإمام في نصب الوكلاء عنه تستدعي إشعار أوليائه بهذا النصب والتوكيل، ووصف الوكيل في دينه وتوثيقه، وبيان واجباته ومستحقاته، والأمر بتنفيذ أوامره وعدم خذلانه، والدعاء للأولياء في خلال ذلك.

فقد وكّل الإمام إبراهيم بن عبدة في بعض النواحي، فاختار علماً من أعلامها، ووجه إليه بالرسالة الآتية:

«وبعد، فقد بعثت إليكم إبراهيم بن عبدة، ليدفع (أهل) النواحي، وأهل ناحيتك حقوقي الواجبة عليكم إليه، وجعلته ثقتي وأميني عند موالي هناك، فليتقوا الله، وليراقبوا، وليؤدوا الحقوق، وليس لهم عذر في ترك ذلك، ولا تأخيره، ولا أشقاهم الله بعصيان أوليائه، ورحمهم الله وإياك معهم برحمتي لهم، إن الله واسع كريم.»[1]

ويبدو أن الإمام عليه السلام قد زوّد إبراهيم بن عبده بوكالة خطيّة، ثم أنبأهم بصحة ذلك الكتاب، فكتب لهم: «وكتابي الذي ورد على إبراهيم بن عبده بتوكيلي إياه بقبض حقوقي من موالينا هناك، نعم هو كتابي بخطي إليه، أقمته لهم ببلدهم حقاً غير باطل، فليتقوا الله حقّ تقاته، وليخرجوا من حقوقي، وليدفعوها إليه، فقد جوّزت له ما يعمل به فيها وفقه الله، ومن عليه بالسلامة من التقصير.»[2]

وهذا نموذج فيه شيء من التفصيل عن كيفية نيابة الوكلاء عن الإمام،

(١) الكشي / الرجال / ٥٨٠.

(٢) المصدر نفسه / ٥٨٠ + الخوئي / معجم رجال الحديث ٢٣٢/١٠.

وذلك في نقطتين:

الأولى: إشعار من يبعث إليهم بالوكيل.

الثانية: تزكية الوكيل وتوثيقه من قِبل الإمام.

وفي ضوء ما تقدم فإن البحث يعتبر نظام الوكلاء من أرقى ما توصل إليه الفكر الإمامي في الدعوة والتبليغ، ويرى فيه البديل الأمين عن حضور الإمام في الواجهة الأمامية، لأنه الوسيط الموثوق به بين الإمام وأوليائه، والقائم على مشاريع الإمام في قبض المال وتوزيعه في مظان استحقاقه ومشروعيته طبق الموازين، وهو سبيل الإجابة عن الاستفتاءات في شؤون الأحكام، وهو نوع من التناوب على القيام بالمسؤولية الشرعية بما يخفف ـ ولو جزئياً ـ من أعباء الإمام الفادحة، وفيه ضمان للسلامة من الهزّات الأمنية والاحتقان السياسي، والابتعاد عن الأضواء التي تثير حساسية السلطان.

ومن هنا كان هذا التخطيط الأمثل هو الأصل في قيام مرجعية فقهاء أهل البيت فيما بعد، إذ اعتاد أولياء الأئمة على تلقي أحكامهم عن طريق نيابة الوكلاء، وقد قام على أساسه نظام آخر يمتد مع أهل البيت في الارتباط بأوليائهم حتى الظهور وقيام الدولة العالمية للإسلام على يدي الإمام المنتظر عجّل الله فرجه، ذلك النظام العريق هو نظام «المرجعية الدينية» المنطلق من التوقيع الرفيع لصاحب الأمر: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم.»[1]

وعلى هذا يتضح أن تخطيط الإمام الحسن العسكري عليه السلام في هذا

(١) الكليني / الكافي ٥٥/٣.

المنظور الجديد يشكل نقطة التحوّل من عصر الحضور الميداني للإمام إلى عصر الغيبة بإقامة الوكلاء نيابةً عن الإمام، وذلك ما يضمن استمرارية التبليغ المتكامل بمبادئ أهل البيت في مراحل لاحقة عبر القرون القادمة بانضمام «مرجعية الفقهاء» لذلك باعتبارها بديلة عن نيابة الوكلاء بانتهاء أمدها الزمني.

إنها تجربة فريدة حضارية كتب لها النجاح الباهر في الأداء الرسالي الهادف، وقد كان بطلها الإمام العسكري من خلال وكلائه، وأبرزهم على سبيل النموذج:

١. عثمان بن سعيد العمري السمّان (الزيّات) ، وهو وكيله، ووكيل صاحب الأمر، وأول النوّاب الأربعة.

٢. محمد بن عثمان بن سعيد العمري، وهو وكيله ووكيل ولده الإمام المهدي عجّل الله فرجه، وثاني النوّاب الأربعة.

٣. إبراهيم بن عبده النيسابوري، وكيله في نيسابور، وهو من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام.

٤. أيّوب بن نوح بن دراج، كان وكيلاً له ولأبيه الإمام علي الهادي من ذي قبل.

٥. أحمد بن إسحق القمي الأشعري، وكيله في قم المشرّقة.

٦. أحمد بن إسحق الرازي.

٧. جعفر بن سهيل الصيقل.

٨. علي بن جعفر الهمّاني، كان وكيلاً له ولأبيه الإمام علي الهادي عليه السلام

من ذي قبل.

٩. القاسم بن العلاء الهمداني، وهو وكيله، ووكيل صاحب الأمر فيما بعد.

١٠. محمد بن أحمد بن جعفر (الجعفري) القمّي العطّار.

تأصيل مرجعية الفقهاء

مُني التشريع الإسلامي بنكسة كبرى ارتفعت إلى مستوى الكوارث الإنسانية، ذلك حينما أقصي أهل البيت عليهم السلام عن قيادة الأمة، وأقصي معهم فقههم في التشريع، واستُعيضَ عن ذلك بمرجعية الصحابة وفقاهة التابعين، وهذا يعني إبعاد أئمة أهل البيت ابتداءً من أمير المؤمنين وحتى الحجة المنتظر عن مضمارهم في نشر حضارة الإسلام، ودورهم في الإفتاء بفروع الحلال والحرام وإعلاء كلمة الله في الأرض. وهذا ما حدث فعلاً.

وقد خُطر على الفقهاء تداول آراء الأئمة صراحةً، وربما كان رأي أهل البيت ـ أحياناً ـ يمزج بغيره لئلا يعرف مصدره، وربما كنّي به عن أعلامهم كأمير المؤمنين: بأبي زينب أو الشيخ، وعن بقية الأئمة بقال الرجل، أو قال العالم.. وهكذا.

ولعل من أطرف ما مرّ بأبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) أنه سئل عن مسألة فقهية.. قال: فاسترجعت في نفسي لأني أقول فيها برأي علي بن أبي طالب، وأدين الله به، فما أصنع؟

ثم عزمت أن أصدقه (أي السائل) وأفتيه بالدين الذي أدين الله به... فأفتاه، ومضى يقول:

إن بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي عليه السلام ولا يأخذون به، وكان

عليّ لا يذكر باسمه بين الفقهاء، والعلامة بين المشايخ أن يقولوا: قال الشيخ.[١]

وهكذا الحال زمن العباسيين، وكان ذلك اتجاهاً سياسياً يراد في محاولة لإخماد اللهب المتوهج من عطاء أهل البيت الفكري. وكان البديل زعامات مرجعية لا نصيب لأغلبها من ورع، ولا إثارة من علم، ولا سابقة في إيمان.

وكان نتيجة هذا الخلط العجيب أن استطال فريق من المستشرقين على التراث الإسلامي يصفونه بالعي والعجز حيناً، ويتهمونه بالتخّلف عن ركب الحضارة حيناً آخر، ضالعين في هذه الدعوى عن وعي ولا وعي، وكأنهم في منأى عن معرفة ما خطط أدعياء السياسة المنحرفة من مخططات رهيبة لمناهضة الإسلام، ولم يشاؤوا أن يقرّوا بذلك مع عرفانهم به، ولكنهم اتجهوا نحو الإسلام يصمونه بتصرفات الملوك والسلاطين.

إن مما ينوء به التأريخ الرسمي عبأً، ذلك الصدى الحاكي لصوت الحق، وليس هو من الحق في شيء، لأنه استغلال للاسم والموقع فحسب دون الغوص في الأعماق لاستقراء الحقائق الغائبة، فلا هو بواصل إلى البعد المؤثر حقاً، ولا هو بتارك الميدان لأهله الفعليين.

وكان للعباسيين لاسيما أبي جعفر المنصور الدور الفاعل في ابتكار المذهبية على أساس الولاء للحكم، واختبار الفقهاء المتجاوبين مع سياسته الخرقاء في القتل والتدمير وسفك الدماء، والاعتداء على الهاشميين من أبناء أمير المؤمنين بصنوف العذاب الذي لا مثيل له، كالقتل صبراً للجماعة والأفراد منهم، وجعل الأحياء في إسطوانات البناء

(١) ظ : هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢/٢٥٤ .

وإغلاقها للموت جوعاً وعطشاً وخنقاً، وهدم السجون على المعتقلين وهم أحياء وليموتوا تحت الأحجار المتراكمة، وقطع الرؤوس وكتابة أسماء أصحابها في لوحات عليها، وجعل ذلك ميراثاً لولده المهدي، وهدية لحفيده الرشيد.[1]

ولا نطيل الحديث في هذا الموضوع المفجع، ولا الاسترسال في تلك الفظائع التي ارتكبت باسم الدين، فله غير هذا الموقع من البحث التاريخي.

والذي نريد قوله إن أبا جعفر المنصور قد فتح الباب على مصراعيه في استغلال وعاظ السلاطين، فتسنم منصّة الإفتاء غير المؤهلين علمياً ودينياً، ففسروا كتاب الله بما لم ينزل به سلطان، واخترعوا الأحاديث الكاذبة في ولاية الظالمين، وقالوا بالسنة بالأهواء، وضربوا بالعقل عرض الجدار.

وأنزلوا الشريعة منازل الرأي دون النظر في الأدلّة، وذهبوا إلى الاستحسان دون الاستنباط، والى القياس دون الاجتهاد القائم على الدليل والقواعد الفقهية والأصولية.

كان الفقهاء الرسميون قد انتشروا في الممالك والأقاليم، ينفِّذون رغبة السلطان، ويفتون بما تملي عليهم أوامر الحاكمين، يفتعلون الأحاديث وينسبونها للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ويضعون الروايات التي تمجّد أسلاف الخلفاء زوراً وبهتاناً، وينتحلون السنن التي لم تكن، إلا صبابة ضئيلة منهم يمنع الورع الذاتي حيناً والوازع الديني حيناً آخر عن العبث والإسراف.

وكان لهذه الظاهرة إشكالية مريرة في تأريخ الإسلام التشريعي، وهي

(١) ظ: على سبيل المثال: الطبري / التأريخ ٣٤٣/٦.

ليست مشكلة سياسية تحلّ بالإداريين والولاة والكتّاب، وهي ليست مشكلة اقتصادية تعالج بالرفاهية وبذل الأموال، وهي ليست مشكلة عسكرية تحتوى بتعيين القادة ورجال الحرب والتجنيد الإلزامي، ولكنها مشكلة دينية خطيرة تتعلق بهذا الدين الحنيف في السنة والفقه والتشريع وإفتاء المسلمين، وتتعلق بتطبيق قانون السماء المختار من الله تعالى بين العباد.

وهنا بدأ الفراغ القاتل في حياة الشريعة ينذر بالخطر، ولم تكن الفئات المتغلبة سياسياً بإزاء ملء هذا الفراغ الحقيقي، إذ انقسموا متاجرين وولاة وحكاماً وسياسيين، وأهل دنيا، ورجال أعمال، وسواداً ولم يكن هناك..

ومهما يكن من أمر فقد استقبل المسلمون هذه المشكلة دون حلّ، واستقبلها الحاكمون بكثير من العناء، فعليهم أن يجدوا ويوجدوا من يفتي بين الناس، وكان إيجاد البديل عن قيادة الأئمة المعصومين متعثراً، يقع في إشكاليات معقّدة حيناً، ويتعرض لشطحات الأهواء حيناً آخر، فكثر الأخذ والردّ بلا طائل، وقام الخلاف على قدم وساق ومُني المسلمون بخسارة كبرى في تلقي معالم الدين.

لقد حاول المنصور الدوانيقي (ت ١٥٨ هـ) الذي تزيّا بزيّ الأكاسرة، وأحدث تقبيل الأرض بين يديه.[١] أن يطوّع الفقهاء في مشروع لخلق المذاهب الأخرى قبال مذهب أهل البيت عليهم السلام فاستعصى عليه سليمان بن الأعمش، وتحداه برواية فضائل أهل البيت وأحاديث الإمام الصادق وأخبار العترة النبوية في مواقف يطول شرحها، ولعل المنصور قتله.[٢]

---

(١) المقربزي / النزاع والتخاصم / ١٣٥.

(٢) ظ : علي الكوراني / جواهر التأريخ ٤٦٨/٥ وما بعدها .

وكان أبو حنيفة بين بين مع المنصور يستجيب له تارةً، ويتقيه تارةً أخرى فسقي من قبل المنصور بشربة عسل مسمومة فمات من غدٍ، والصحيح أنه توفي في سجن المنصور.[١]

وفي هذا الضوء لا نستطيع القول إن أبا حنيفة وقف ضد المنصور، ولا تستطيع القول إنه وقف معه، وإنما اتخذ بين ذلك سبيلاً، ومع هذا فقد غدر به المنصور.

نعم؛ استطاع المنصور أن يطوّع مالك بن أنس ويجعله من المنفذين لأوامره متمثلاً في كل شيء، فقد أحضره واستدعاه فاستقبله، وأمره أن يؤلف كتاباً يجمع به أشتات الفقه والأحاديث قائلاً له: «لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مني ومنك!! وإني قد شغلتني الخلافة، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به، تجنّبْ فيه رخص ابن عباس، وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئه. قال مالك: فو الله لقد علّمني التصنيف يومئذٍ.) [٢] وقد استجاب مالك لذلك وسمّى كتابه «الموطأ» وهو أصل المذهب المالكي، وقد اشترط عليه المنصور أن لا يروي فيه عن علي عليه السلام شيئاً، وقد نفّذ ذلك حرفياً ولهذا فإنك لا تجد في «الموطأ» رواية عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.[٣]

ولقد تعهد المنصور لمالك بفرض كتابه على المسلمين بالقوة، بعد أن يكتبه كما تكتب المصاحف، فقد روى الذهبي أن المنصور قال لمالك: «والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف، ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملنهم عليه.»[٤]ومع كل هذا العمل المتواصل الذي

(١) ظ: الأصبهاني / مقاتل الطالبين / ٢٣٥ + الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ٣٢٩/١٣.
(٢) ابن خلدون / المقدمة / ١٨ + الذهبي / سير أعلام النبلاء ١١١/٨.
(٣) النوري / مستدرك الوسائل ٢٠/١.
(٤) الذهبي / سير أعلام النبلاء / ٦١/٨.

قام به أبو جعفر المنصور، فما استطاع أن يمحو ذكر أهل البيت، ولا تمكن من القضاء على الفكر الإمامي، إذ استطاع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام (ت: ١٤٨ هـ) أن يتبنى ما أسسه أبوه الإمام محمد الباقر عليه السلام من ترسيخ قواعد مدرسة أهل البيت الكبرى، وأن ينشر مبادئ الشريعة الغراء رغم تلك الإفرازات السامة، وبذلك أعيدت للإسلام نضارته، وازدهرت آراؤه.[١]

وقد أعدّ الأئمة فيما بعد قادة الفكر الإمامي من الفقهاء وأساطين العلماء وجهابذة الفن بجهود مكثّفة عنيت بتدوين الأحاديث ولمّ شتاتها، وجمع ما تفرق منها، وقد انبثقت عن ذلك حركة الاجتهاد بين الفقهاء وِفقَ ما أصله الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام فيما ورد عنهما.

«إنما علينا أن نلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تفرّعوا.»[٢]وما جاء عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بقوله: «علينا الأصول، وعليكم الفروع»[٣]

وبناءً على هذا التوجيه الضخم نهض الفقهاء بأداء الوظيفة الشرعية، وعملوا مخلصين على إبراز فقه آل محمد مبوّباً مبرمجاً في ظل علم الحديث، وقد رفد الإمام الحسن العسكري عليه السلام هذه المبادرة الخيرة، وأعلن تأييده للفقهاء والأخذ عنهم، وأمر أولياءه بالرجوع إلى فتاواهم، وتقليدهم في الفروع قائلاً: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه.»[٤]

---

(١) ظ: تفصيل ذلك / المؤلف / الإمام محمد الباقر مجدد الحضارة الإسلامية / ٢٣٢ وما بعدها.

(٢) الحر العاملي / وسائل الشيعة ٤١/١٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) الطبرسي / الاحتجاج ٢٦٣/٢ وهو مرويٌّ في الكتب الأربعة.

وهنا أعطى الإمام خصائص الفقيه الذي يرجع إليه في التقليد، فهو ذو صفات أربع: صيانة النفس، حفظ الدين، مخالفة الهوى، إطاعة أمر المولى عَزَّوَجَلَّ.

وبهذا يكون الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ قد ثبت قواعد الإمامية بالرجوع إلى الإمام بعد الغيبة، وأجزل القول في صفة الفقيه المقلد ثقة وعدالة، وبذلك يكون الإمام الحسن العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خرج من عهدة مسؤوليته الشرعية بعد وفاته وغيبة ولده المهدي بمهمتين:

الأولى: نيابة الوكلاء، وقد أمر بالرجوع لهم للوثاقة المطلقة التي أولاها إياهم، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يرجع أولياءه إليهم، كما عن أحمد بن إسحق عن الإمام العسكري عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن عثمان بن سعيد وولد محمد قال، قال الإمام: «العمري وابنه ثقتان، فما أديّا فعني يؤديان، وما قالا فعني يقولان، فاسمع لهما وأطعهما فأنهما الثقتان المأمونان «[1]

الثانية: مرجعية الفقهاء وأخذها الطابع النهائي والصيغة القطعية بما لا يقبل الردّ أو الجدل كما رأيت.

وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أرسى أصول هذا المبدأ، فوجه الإمامية إليه بقوله: «ينظر من كان منكم فمن روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يُقبل منه، فإنما استخف بحكم الله، وعلينا ردّ، والرادّ علينا رادّ على الله، وهو بحدّ الشرك.»[2]

ولم ينحرف أولياء أهل البيت منذ وفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري (ت ٣٢٩ هـ) وابتداء الغيبة الكبرى، وإلى اليوم من عام ١٤٢٩ هـ

(١) الطوسي / الغيبة / ٢١٨.

(٢) الكليني / الكافي ٥٤/١ + الطوسي / التهذيب ٢١٨/٦ و٣٠١.

عن هذا المبدأ، فقد رجع الناس إلى الفقهاء لإكمال المسيرة، وقد واصل فقهاء أهل البيت استنباط الأحكام الفرعية في ضوء عملية الاجتهاد، وانتصب المذهب شامخاً متحدياً العصور والأجيال بالمنهج الاجتهادي في ضوء الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

وقد كان التدريب الاجتهادي المنظّم من مهمات الشيخ الأكبر المؤسس محمد بن محمد بن النعمان العكبري الكاظمي البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) وقد عزز هذا المبدأ على يد تلميذه علم الهدى السيد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) وقد أثمر يانعاً على يد تلميذهما أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) فألف كتابه العظيم «المبسوط» في الفقه الإمامي، وجمع فيه الفروع في كل باب وفصل ومبحث، وأفتى في ذلك كله، فانتقل بهذا العلم الجليل في حياة النص إلى حياة الإفتاء، ومن مناخ الرواية إلى مناخ الاستنباط في نحو ثلاثين كتاباً انتظمت مرتبةً أبواب الفقه، وهي عملية متطوّرة كبرى، وبداية حضارية كتب لها التوفيق والسداد، ولا نغالي إذا قلنا: إن من جاء بعده من الفقهاء الأعاظم قد نسج على منواله، وسلك سبيل اجتهاده، ولذا عُبّر عنه بشيخ الطائفة، لابتكاره المنهج الموضوعي في طرح كبريات المسائل.

وهكذا كانت المرجعية الدينية العليا تؤدي مهمتها بأمانة وإخلاص، ولم تتحكم في ترشيحها وتعيين المرجع الأعلى العوامل السياسية وإرادة السلطان، ولم تتفاعل مع الحكومات الزمنية بإيحاء أو توجيه، وإنما تتحقق مرجعية الأعلم والأمثل تلقائياً ومن قبل أهل الخبرة العلمية، ويكون لأهل الخبرة القرار النهائي في الترشيح، وتتلقى الأمة هذا القرار بالرضا والغبطة والقبول، ولم يتفق ولو لمرة واحدة أن نجح أعداء الفكر الإمامي أو طواغيت السياسة أن يفرضوا مرجعاً واحداً خلال أحد عشر

قرناً من الزمان، وبقي هذا الكيان ثابتاً مستقراً لا يتغيّر ولا يتحوّل ولا يُستغل.[١]

(١) ظ: المؤلف / الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية / ١٨.

فلسفة انتظار الفرج

انتظار الفرج بمفهومه الرسالي يرسو على مستويين متعاضدين:

المستوى الأول: ويُعنى بتوطين النفس ودربتها على تلقي الأزمات بصدر رحب، وانفتاح على مكاره الزمن وعناء الشدائد، ويوحي بما يفرّج ذلك بعد أزمة خانقة.

وبذلك يتجلى مدى صبر الإنسان عند المعاناة، وتبدو درجة تمحيصه لدى هذا الاختبار الصعب كما نطقت بذلك روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام «... لا يكون فرجنا حتى تغربلوا، ثم تغربلوا، ثم تغربلوا ـ يقولها ثلاثاً ـ حتى يذهب الله الكدر ويبقى الصفو.»[1]

وتحدث جماعة عند الإمام محمد الباقر عن الحجة المنتظر، فالتفت إليهم قائلاً: «هيهات، هيهات لا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم حتى تمحّصوا، ولا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم حتى تميزوا، ولا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم حتى تغربلوا، ولا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم إلا بعد أياس، ولا يكون الذي تمدّون إليه أعناقكم حتى يشقى

(١) الطوسي / الغيبة / ٢٠٦.

من شقي، ويسعد من سعد.»[١]

فهناك غربلة، وتمييز، وتمحيص، يتضح فيها الصادق والصابر من الكاذب الهارب، والناس في هذا درجات بحسب الثبات وشدّة التحمل، وقابلية الإنسان في المعاناة، وهنا تبدو إلماحة من فلسفة انتظار الفرج بالمعنى الاختباري، فإذا نجح المرء في هذا الامتحان كان منتظراً للفرج بمعناه الذي تتحدث عنه الرواية بحديث نبوي شريف يقول: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله تعالى.»[٢]

المستوى الثاني: ويعني بإعداد النفس في صدق الترقب والترصد والانتظار، فإن من يترقب أمراً عظيماً يتهيأ له، ويعمل من أجله بقدر شوقه إليه، ويتشوق إليه بمستوى اعتداده به، ولا شيء أحبّ للمؤمن الصلب العقائدي من إحياء أمر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعملية الأحياء هذه تدعو إلى توعية الأمة واحتضان الجيل بما يتناسب معها، وتعمل على تعميق الدعوة إلى المثل العليا التي ضحوا من أجلها، وذهبوا قرابين على مذبح العقيدة، وهي مهمة صعبة المراس، ولكنّها تتيسر لمن دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فهي ضرورة ملحّة لخلق المجتمع المتكامل الذي يؤمن برسالة أهل البيت عليهم السلام بحيث تتهيأ الأجواء المناسبة فكرياً وعملياً لاستقبال ذلك الحدث العالمي بظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه.

وينبغي أن يصاحب هذين المستويين الزهد الحقيقي في المظاهر الزائلة وحطام الدنيا، والالتزام بالتقوى معياراً روحياً، ليلتقي الهدف الديني بالهدف الرسالي، وذلك من الأهمية بمكان لمعرفة فلسفة انتظار الفرج.

(١) النعماني / الغيبة / ١١١.

(٢) الصدوق / كمال الدين / ٦٠٤.

إذن ليست الدعوة إلى انتظار الفرج نوعاً من الاتكالية على الغيب المجهول، ولا كيفية من الترهّب والانعزال عن الناس، ولا مبرراً للقوقعة على الذات وعدم مجابهة الحياة، فالأمر عكس هذا كلّه، بل هي عملٌ رسالي متواصل من خلال النفس وجماعة المؤمنين في حال الغيبة، وتواصل مع الخط الإلهي في الثبات على المبدأ مهما طال الزمن وكثر البلوى.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «طوبى لمن تمسك بأمرنا في غيبة إمامنا، فلم يزغ قلبه بعد الهداية.»[١]

كما أن هذا الأمر بالانتظار لا يعنى مداهنة الظلم ومسايرته، ولا يرى مسالمة الباطل ومصافحته، وإنما هو أمرٌ بالابتعاد عن الفتن المحدثة دون راية هدى، والاتزان عن الاندفاع وراء الحركات الغامضة في أهدافها أو الانتفاضات المجهولة في دوافعها، فهي قد تعلن هدفاً وتضمر غيره، وقد ترفع شعاراً وتريد سواه، فذلك جريءٌ وراء العواطف والأهواء ولا عائدية فيه لأتباع آل محمد إلاّ زيادة المكاره لهم، وإضافة قوافل من الضحايا إلى قوافل سابقة، مما يعني أن ذلك كلّه تضحية بلا قضيّة مُسوّغة شرعاً.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما خرج منّا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد، ليدفع ظلماً، أو ينعش حقاً، إلا اصطلمته البلية، وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا.»[٢]

ولهذا فإن انتظار الفرج بفلسفته الحقّة ينبغي أن يستقبل بذهنية تقرأ الأحداث، وتتحرى البعد التجريبي، وبذلك تكمن قيمته الرسالية في

(١) الصدوق / معاني الأخبار / ١١٢.
(٢) النعماني / الغيبة / ١٠٤.

تحقيق مسيرة أهل البيت القيادية، دون الولوج في متاهات مرتبكة مهما كانت شعاراتها برّاقة، أو كانت أسماء قادتها لامعة.

لذلك نجد الأئمة عليهم السلام يباركون ثبات أوليائهم، وصدق عزيمتهم في الانتظار الطويل، ويصفونهم بالمجاهدين تارةً، والمخلصين تارةً أخرى، وإنهم الشيعة صدقاً، والدعاة حقاً، فعن الإمام زين العابدين كما في رواية أبي خالد الكابلي، أنه قال: «تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من بعده.

يا أبا خالد: إن أهل زمان غيبته، القائلون بإمامته، المنتظرون لظهوره أفضل أهل كلّ زمان، لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف، أولئك المخلصون حقاً، وشيعتنا صدقاً، والدعاة إلى دين الله سراً وجهراً.»[١]

وتوالت بعد هذا الثناء العاطر على المنتظرين من قبل سيدنا ومولانا الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، توجيهات الأئمة عليهم السلام في هذا الاتجاه والمنظور.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ..﴾[٢]

«اصبروا على أداء الفرائض، وصابروا على أذيّة عدوكم، ورابطوا إمامكم المهدي.»[٣]

وهذه نظرة تطبيقية تبرمج فلسفة الصبر والمصابرة والمرابطة.

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ١٢٢/٥٢ وانظر مصدره.

(٢) سورة آل عمران / ٢٠٠.

(٣) النعماني / الغيبة / ١٠٣.

وكان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قد حبَّبَ انتظار الفرج لشيعته من خلال التمثيل بآيات القرآن العظيم، فقال: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج!! أما ما سمعت قول الله تعالى:

﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم رَّقِيبٌ﴾.(١)

وقوله تعالى ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾(٢)

فعليكم بالصبر، فإنه إنما يجيء الفرج على اليأس، فقد كان من قبلكم أصبر منكم.»(٣)

وقد سبق لمولانا أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أن عبر عن المقام الرفيع الأسنى للمنتظر لأمرهم عليهم السلام فقال: «المنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه في سبيل الله.»(٤)

وفي الانتظار حفاظ على الدماء من السفك التائه في ظلمات الأحداث المبهمة والتحرك المشبوه.

ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«كل راية ترفع قبل قيام القائم عليه السلام صاحبها يكون طاغوت.»(٥)

وفي الرواية تحذير إيحائي من الانخراط في خضمِّ الضجيج في ظروف الفتن والاضطراب العقائدي.

لهذا فالانتظار حتى مع عدم إدراك الثأر من الطواغيت بالموت،

---

(١) سورة هود / ٩٣.

(٢) سورة الأعراف / ٧١.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار ١٢٩/٥٢ وانظر مصدره.

(٤) الصدوق / كمال الدين / ٦٠٣.

(٥) النعماني / الغيبة / ٥٧.

يُحسب انتظاراً مشروعاً يثاب عليه المؤمن، ويعدّ من خلاله في أصحاب القائم المنتظر.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «من مات منكم على هذا الأمر منتظراً، كان كمن كان في فسطاط القائم.»[١]

وهذا شرف ما بعده شرف، وفيه دلالة على ضرورة المصابرة في الانتظار.

ويؤكد هذه الحقيقة الإمام محمد الباقر عليه السلام بقوله:

«ما ضر من مات منتظراً لأمرنا ألا يموت في وسط فسطاط المهدي عليه السلام وعسكره.»[٢]

وتارةً أخرى يفصل الإمام محمد الباقر في فلسفة الانتظار مقترناً بالمعرفة والاحتساب فيقول:

«العارف منكم هذا الأمر، المنتظر له، المحتسب فيه، كمن جاهد ـ واللهِ ـ مع قائم آل محمد بسيفه. ثم قال: بل والله كمن استشهد مع رسول الله في فسطاطه.»[٣]

ويضع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام معايير ترقب الإمام بالانتظار وفق الأخبار عن دولتهم بإشاءة الله، وبصفات المرتقب في العمل والسلوك، فعن أبي بصير أن الصادق قال: «إن لنا دولة يجيء الله بها إذا شاء» ثم قال: «من سرّه أن يكون من أصحاب القائم عليه السلام فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام

(١) الصدوق / كمال الدين / ٦٠٣.
(٢) لطف الله الصافي / منتخب الأثر / ٤٩٨.
(٣) المصدر نفسه / ٤٩٨.

القائم بعده، كان له من الأجر مثل أجر من أدركه.»[١]

وهناك روايتان لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، يؤثران الانتظار وطلب الفرج، فذلك أحب الأعمال مقترناً بالأخذ بأمرهم مطلقاً، ليكون الآخذ بذلك معهم في حضيرة القدس، والمنتظر كالمتشحط بدمه في سبيل الله.

الأولى: قوله عليه السلام:

«انتظروا الفرج، ولا تيأسوا من روح الله، فإن أحب الأعمال إلى الله عزوجل: انتظار الفرج.»[٢]

الثانية قوله عليه السلام:

«الآخذ بأمرنا معنا في حضيرة القدس، والمنتظر لأمرنا كالمتشحط بدمه في سبيل الله.»[٣]

ومن خلال هذا المنظور الملتزم أمرنا بالدعاء الصادق بتعجيل الفرج، فالدعاء قد يؤثر في التقدير، وقد يؤهل لتذليل صعوبة الانتظار، وقد يعجل بظهور الإمام.

قال صاحب الأمر نفسه:

«وأكثروا من الدعاء بتعجيل الفرج، فإنه فرجكم.»[٤]

وهذا التطلع بالدعاء بشرطه نوع من الإعداد للنفس في استقبال اليوم الموعود، وصنفٌ من الاستعداد في الاستجابة لنداء الداعي إلى الله وهو

(١) محمد تقي الموسوي / مكيال المكارم / ٤١٠.
(٢) لطف الله الصافي / منتخب الأثر/٤٩٨.
(٣) لطف الله الصافي / منتخب الأثر/٤٩٨.
(٤) الصدوق / كمال الدين ٤٥٢ + الطبرسي/الاحتجاج ٢/٤٨٢.

الإمام، وحينئذٍ ينظر لهذا الانتظار باعتباره إيجابي الأبعاد في نظرة مغايرة للرؤية السلبية.

يقول أستاذنا المجدد الشيخ محمد رضا المظفر طاب ثراه:

«ليس معنى انتظار المصلح المنقذ المهدي عليه السلام أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي فيما يعود إلى الحق من دينهم، وما يجب عليهم من نصرته والجهاد في سبيله، والأخذ بأحكامه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل المسلم أبداً مكلّف بالعمل بما أنزل من الأحكام الشرعية، وواجب عليه السعي لمعرفتها على وجهها الصحيح بالطرق الموصلة إليها حقيقةً، وواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما تمكن من ذلك وبلغت إليه قدرته «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» ولا يجوز له التأخر عن واجباته بمجرد الانتظار للمصلح المهدي والمبشّر الهادي عليه السلام، فإن هذا لا يسقط تكليفاً ولا يؤجل عملاً.»[1]

فالانتظار إذن لا يلغي العمل من أجله، ولا يتقاطع مع النشاط الديني المشروع، فكل منهما حقيقة قائمة بذاتها، لها ظواهرها وعوالمها الخاصة في تحقيق قيم الإسلام ومبادئه.

وكان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يوصي أصحابه بتقوى الله وأداء الفرائض، ويعرّج على انتظار الفرج كما في وصية أوصى بها علي ابن الحسين بن بابويه القمي، قائلاً:

«... وعليك بالصبر وانتظار الفرج، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج.»[2]

وكان الإمام يطمئن الأمة بالقول: إن الأرض لا تخلو من حجة إلى

(١) المظفر / عقائد الإمامية / ٧٩ ـ ٨٠ / مطبقة النعمان / النجف الأشرف / ١٩٦٨ م.
(٢) البيهقي / شعب الإيمان ٤٣/٢.

يوم القيامة، ويؤكد أن الحجة ولده الإمام المهدي، وأن له غيبة وظهوراً، الغيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك المبطلون، والظهور تخفق فيه الأعلام البيض فوق رأسه بنجف الكوفة، فعن محمد بن عثمان بن سعيد العمري، يقول: سمعت أبي يقول: سئل أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام وأنا عنده عن الخبر الذي روي عن آبائه: أن الأرض لا تخلو من حجة إلى يوم القيامة، وأن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية؟ فقال:

إن هذا حقٌّ، كما أن النهار حقٌ!!

فقيل له: يا ابن رسول الله فمن الحجة والإمام بعدك؟

فقال: ابني محمد هو الإمام والحجة من بعدي، ومن مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية. أما إن له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون، ويكذب فيها الوقاتون، ثم يخرج فكأني أنظر إلى الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة.»[1]

ولعل من انتظار الفرج وفلسفته الروحية تلك الصلاة الزاكية على الحجة المنتظر من قبل أبيه عليه السلام.

فقد سأل أبو محمد عبد الله بن محمد العابد بالدالية أبا محمد الحسن بن علي العسكري في منزله بسرّ من رأى سنة خمس وخمسين ومائتين أن يملي عليه من الصلاة على النبي وأوصيائه عليه و عليهم السلام، وأحضر معه قرطاساً كبيراً، فأملى عليه الإمام من غير كتاب..

وكان مما يخصّ الصلاة على الحجة المنتظر قوله عليه السلام: «اللهم صلِّ على وليّك وابن أوليائك الذين فرضت طاعتهم، وأوجبت حقهم،

(١) الصدوق / كمال الدين /٤٠٩/٢ + الطبرسي / إعلام الورى / ٤١٥ + الأربلّي / كشف الغمة ٣١٨/٣ + الحر العاملي / وسائل الشيعة ٤٩١/١١.

وأذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم انصره وانتصر به لدينك، وانصر به أولياءك وأولياءه وشيعته وأنصاره، واجعلنا منهم.

اللهم أعذه من كل باغٍ وطاغٍ، ومن شر جميع خلقك، واحفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، واحرسه وامنعه أن يوصل إليه بسوء، واحفظ فيه رسولك وآل رسولك، وأظهر به العدل، وأيّده بالنصر، وانصر ناصريه، واخذل خاذليه، واقصم به جبابرة الكفر، واقتل به الكفار والمنافقين وجميع الملحدين حيث كانوا من مشارق الأرض ومغاربها وبرّها وبحرها، واملأ به الأرض عدلاً، وأظهر به دين نبيك عليه وآله السلام، واجعلني اللهم من أنصاره وأعوانه وأتباعه وشيعته، وأرني في آل محمد ما يأملون، وفي عدوهم ما يحذرون، إلهَ الحق آمين.»[1]

ولتكن هذه الصلاة الكريمة خاتمة المسك لهذا الفصل من الكتاب.

(١) الشيخ الطوسي / مصباح المتهجد / ٢٨٠.

وللمعاصرين آراؤهم في الإمام ٦٢

الفصل الثاني ٦٧

ظواهر عصر الإمام العسكري ٦٧

تداعي هيبة الحكم ٦٩

حياة اللهو والعبث والاستئثار وإنكار الإمام ٧٥

الاضطهاد السياسي ٨٢

موجات الانحراف والأفكار الوافدة ٨٧

مجابهة الإمام العسكري للتضليل العقائدي ٨٩

الفصل الثالث ٩٩

الإمام العسكريُّ وملوك البلاط العباسي ٩٩

الإمام والخطّ العباسي العام ١٠١

الإمام في ولاية المعتزّ العباسي ١٠٦

الإمام في أيام المهتدي العباسي ١٠٩

الإمام في عهد المعتمد العباسي ١١٣

الإمام يواصل مسيرته القيادية ١٢١

الفصل الرابع ١٢٩

الإمام العسكري يمهد لولده الإمام المنتظر ١٢٩

طبيعة التمهيد التدريجي للإمام المنتظر ١٣١

التخطيط الاستراتيجي لإعلان ميلاد الإمام المنتظر ١٣٦

نيابة الوكلاء عن الإمام ١٤٣
تأصيل مرجعية الفقهاء ١٥١
فلسفة انتظار الفرج..... ١٦٠
الفصل الخامس..... ١٧١
صفحات مشرقة من تراث الإمام ١٧١
موارد علم الإمام الحسن العسكري ١٧٣
تلامذة الإمام العسكري ودورهم الإيجابي ١٧٩
وصايا الإمام ورسائله الرائدة..... ١٨٥
الإمام يدفع الشبهات بإفاضاته القيّمة..... ١٩٥
في رحاب التفسير ٢٠٣
في ميادين الفقه..... ٢٠٩
الألفاظ الجارية مجرى الأمثال في تراث الإمام..... ٢١٤
الفصل السادس..... ٢٢١
استشهاد الإمام الحسن العسكري ٢٢١
اغتيال الإمام مسموماً ٢٢٣
إجراءات النظام العباسي..... ٢٢٧
الحقيقة التاريخية في تجهيز الإمام ٢٣٢
ما بعد وفاة الإمام العسكري..... ٢٣٨